الآيات من 79 - 82

تحريف أحبار اليهود وافتراآتهم

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

نزلت الآية (٧٩) : في أهل الكتاب أو في أحبار اليهود كما أخبر ابن عبّاس ﷺ الذين غيّروا صفة النّبيّ ﷺ وبدّلوا نعته، فكانت صفته في التّوراة، أكحل، أعيَن، ربعة، جعد الشّعر، حسن الوجه، فمحوه حسدًا وبغيًا، وقالوا: نجده طويلًا أزرق، سبط الشّعر.

ونزلت الآية (٨٠): كما أخبر ابن عبّاس ﷺ: قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تقول: إنّما مدّة الدّنيا سبعة آلاف سنة، وإنّما يعذّب النّاس في النّار، لكلّ ألف سنة من أيّام الدّنيا يوم واحد في النّار من أيّام الآخرة، فإنّما هي سبعة أيّام، ثمّ ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله ﴿خَالِدُونَ﴾.

روى الطبريّ عن ابن عبّاس ﷺ: أنّ اليهود قالوا: لن ندخل النّار إلا تحلّة القسم- الأيّام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة- فإذا انقضت، انقطع عنّا العذاب، فنزلت الآية.

المعنى العام

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

يتوعّدهم تعالى بالهلاك والدّمار فيقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدّعاة إلى الضّلال بالزّور والكذب على الله، وأكلِ أموال النّاس بالباطل.

والويل كلمة مشهورة في اللغة، قيل: الويل وادٍ في جهنّم لو سيّرت فيه الجبال لماعت. وعن ابن عبّاس ﷺ الويل هو المشقّة من العذاب، وقيل: الويل شدّة الشّرّ. قال سيبويه: «ويل» لمن وقع في الهلكة، و«ويح» لمن أشرف عليها.

عن ابن عبّاس ﷺ أنّه قال: "كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْدَثُ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ"[1]

باعوا كلام الله ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاعًا زهيدًا من متاع الدّنيا بحذافيرها، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكذب والبهتان والافتراء، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ليأكلوا به السّحت ومطامع خاوية.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبيد الله بن عبد الله، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النّبيّ ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء"، حديث رقم: ٧٣٦٣.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُون ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود في أمانيّهم الباطلة ﴿وقَالُوا﴾ فيما نقلوه وسمعوه من أحبارهم من أنّ الجنّة لا يدخلها إلا هم، وأنّ النّار لا تمسّهم إلا أيّامًا معدودة، ثمّ ينجون منها ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وهي أربعون يومًا مقدار عبادة العجل، ثمّ يخلفنا - على زعمهم- فيها المسلمون. فردّ الله عليهم ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ فإن كان قد وقع عهد من الله فهو لا يخلف عهده، ولكنّ هذا لا جرى ولا كان ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من الكذب والافتراء عليه، فالأمر ليس كما تمنّيتم واشتهيتم، ﴿بَلَى﴾ ستمسّكم النّار وتخلّدون فيها، لأنّ ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي اقترف كبيرة، أو كفر كما كفرتم ومات على الكفر ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ﴾ فأحدق به شركه، واستولت الكبيرة على قلبه فلم يندم على اقترافها، ولم يسأل الله التّوبة منها، فصار يأتيها وهو لا يشعر بأنّه يقترف ذنبًا ﴿فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ إلى أبد الآبدين، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما نُزّل على محمّد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعملوا بشريعته المطهّرة الأعمال الصّالحة، ﴿أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ في النّعيم المقيم. وهذه عادته تعالى، إذا ذكر فريقًا شفّع بضدّه ترغيبًا وترهيبًا.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدايات الآيات:

١. وجوب العلم بالله وبصفاته العلا وأسمائه الحسنى ووجوب تعلّمها.

٢. التّحذير الشّديد من الفتاوى الباطلة التي تحرّم ما أحلّ الله، أو تحلل ما حرّم، ليتوصّل بها صاحبها إلى غرض دنيويّ ماديّ أو معنويّ، كمدح وثناء أو حظوة لدى ذي سلطان.

٣. التّنبيه على خَطَرِ الذّنوب صغيرها وكبيرها، وإلى العمل على تكفيرها، بالتّوبة والعمل الصّالح قبل أن تحيط بالنفّس فتحجبها عن التّوبة والعياذ بالله.

٤. دخول الجنّة منوط بالإيمان والعمل الصّالح معًا، كما روى مسلمًا: "أنَّ النَّبيّ ﷺ قال لسفيانِ بنِ عبدِ الله الثَّقفي، وقد قال له: يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلام قولاً، لا أسألُ عنه أحدًا بعدك، قال: ﴿قل: آمنتُ بالله ثمّ استقِم﴾

٥. ضرورة المحافظة على مجلس علم أسبوعيّ، فمن مات على ذلك مات تائبًا، وأهميّة قراءة الكبائر السّبعين قبيل رمضان في كلّ عام والتّوبة منها وتركها في رمضان ومجاهدة نفسه على تركها على الدوام، فانّ ذلك يحول دون أن تحيط بالإنسان سيّئاته فتدخله النّار.

في الأمر والنّهي

- **حرمة الكذب على رسول الله ﷺ لأنّ ذلك يُدخل صاحبه النّار:**

الكذب من رذائل الصّفات وقبائح الأخلاق، وقد حرّمه الله تعالى في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيّه ﷺ، وهو من أقصر الطّرق إلى النّار. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «إِيَّاكُم والكَذِبَ، فإنَّ الكَذبَ يهدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النّار»[1]. من الكبائر الكبرى: الكذب، والكذب هو إخبار بالشّيء على خلاف ما هو عليه: "سواء تعمّد ذلك صاحبه أم جهله، لكن لا يأثم صاحبه في الجهل، وإنّما يأثم في العمد".

وإذا كان الكذب حرامًا على عموم النّاس، فإنّ الكذب على رسول الله ﷺ أشدّ وأعظم حرمةً. فالكذب من أقبح المنكرات، ومن أكبر الكبائر، وقد توعّد رسول الله ﷺ من يكذب عليه متعمّدًا بأشدّ العذاب، وقد تواترت الأحاديث في بيان عِظم حرمة وجريمة الكذب عليه ﷺ لقوله: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2].

قال القاضي عياض: "وإذا كان الكذبُ ممنوعًا في الشّرع جملةً فهو على النّبيّ ﷺ أشدّ، لأنّ حقّه أعظم، وحقّ الشّريعة آكد، وإباحة الكذب عليه ذريعة إلى إبطال شرعه، وتحريف دينه"[3].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ»[4]. وعنه ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الفِرَى أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ»[5]، وقال أيضًا: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبَيْنِ»[6].

- **وجوب نقل حديث رسول الله ﷺ بحرفيّته وعظيم جرم من نسب إلى الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ كلامًا لم يقله، أو حرّف في معناه:**

يجب على من يروي حديث رسول الله ﷺ أن يرويه بحرفيّته بالنّص، والكلمات التي حدّث بها رسول الله ﷺ ولا يستعمل فهمه ليروي الحديث بالمعنى. فإنّ كلام رسول الله ﷺ وحي، وقد أوتي ﷺ جوامع الكَلِم، فمعاني حديثه ﷺ عميقة جدًا، وسَتُفهم بمعانٍ كثيرة متعاضدة وليست متعارضة عبر السّنين والقرون من عدد كبير من العلماء والباحثين في مختلف المجالات العلمية- فمباحث الإعجاز العلميّ في السُّنّة النّبويّة، توضّح أنّ الحديث يورد كلمات وعبارات في منتهى الدّقة العلميّة التي لم تُكتشف إلا حديثًا، لذا لا تصحّ رواية الحديث بالمعنى دون تحديد ذلك- فعن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[7].

- لا يقال يجوز الكذب لمصلحة الدعوة، لأنّه لا يمكن أن تقوم الدّعوة إلى الله بمعصية الله أبدًا، فيكفينا ما في القرآن والسّنّة من المواعظ.

(١)رواه أبو داود في سننه، عن عبد الله بن مسعود، كتاب: الأدب، باب: في الكذب، حديث رقم: ٤٩٨٩، الحديث إسناده صحيح.
(٢)رواه البخاريّ في صحيحه، عن المغيرة، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، حديث رقم: ١٢٩١.
(٣)ذكره القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١١٣/١).
(٤)رواه البخاريّ في صحيحه، عن علي، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ١٠٦.
(٥)رواه البخاريّ في صحيحه، عن واثلة بن الأقرع، كتاب: المناقب، حديث رقم: ٣٥٠٩.
(٦)رواه التّرمذيّ في سننه، عن المغيرة بن شعبة، كتاب: أبواب العلم، باب: ما جاء فيمن روى حديثًا وهو يرى أنّه كذب، حديث رقم: ٢٦٦٢، الحديث حسن صحيح.
(٧)رواه الحاكم في المستدرك، عن جبير، كتاب: العلم، باب: وأما حديث كعب بن مالك، حديث رقم: ٢٩٤، الحديث صحيح.

حُرمة الكذب في الرّؤيا أو التّحريف فيها، سواء كانت الرّؤيا باليقظة أو المنام، خاصّة الرّؤيا المتعلّقة بالدّين كرؤية الأولياء أو الأنبياء أو الله تعالى، فهذا من الكبائر:

ومن يقول إنّه رأى رؤيا لم يرها، فإنّه يعذّب يوم القيامة، فعَنِ ابْنِ عبّاس ﷺ عَنِ النّبيّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»[1]

عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»[2]. وعن أنس ﷺ قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ، قَالَ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: لَكِنِ الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: رُؤْيَا الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ»[3]، فقد تضافرت الأخبار عن النّبيّ ﷺ أنّ الرؤيا الصّادقة جزء من ستّة وأربعين جزءًا من النّبوّة، والنّبوّة لا تكون إلا وحيًا من الله، فكان معلومًا بذلك أنّ الكاذب في نومه كاذب على الله أنّه أراه ما لم يَرَ، والكاذب على الله أعظم فرية وأولى بعظيم العقوبة من الكاذب على نفسه بما أتلف به حقًا لغيره، أو أوجبه عليه، وبذلك نطق محكم التّنزيل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[4]، فتبيّن بذلك صحّة أنّ الكذب في الرؤيا ليس كالكذب في اليقظة، لأنّ أحدهما كذب على الله، والآخر كذب على المخلوقين، والله أعلم.

العمل بالآيات:

لا تتهاون بعذاب الله؛ فذلك يفضي إلى القسوة ومزيد من المعاصي، ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾[5]. من الكبائر الكبرى: الكذب.

من الكبائر: الأمنُ مِنْ مَكرِ الله:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[7]

هناك ظاهرة نراها في حياتِنا اليوميّة، حيث يظنُّ أحدهم أنّه أفضلُ المُسلمين، وأنّه يستحقّ أن يدخلَ الجنّةَ بِعَمِلِه، وَيستحِقُّ أيضًا النِّعَمَ الّتي أَنعَمَ الله تعالى بِها عليهِ، وَنسمَعُهُ يُكرّر وَيُردّد "الدّين المعاملة". ويَكونُ واثقًا أنّه مِن أهلِ الجنّة، لأنّه يظنُّ أنّ الله تعالى يُحبّه، ولذلك بَسَطَ لَهُ الدّنيا، دون أن يدرك أن الله إنّما وفّقه لطاعته وأغدق عليه النعم ليمتحنه، وكلّه فضل من الله تعالى عليه لا باستحقاق منه، وأنّه يدخل الجنة برحمة الله لا بعمله، فعليه أن يسأل الله الجنّة وهو مدرك أنّ الأمر بيد الله وحده، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ الله؟ قالَ: لا، ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ»[8]. لذلك ينبغي على العبد أن يستغفر الله تعالى بعد كلّ عبادة، ويسأل الله تعالى القبول وهو معتقدٌ أنّ الفضل كلّه لله أن وفّقه للطاعة. وحذارِ من أن يظنّ أنّ عمله أهلٌ للقبول، بل يرى فيه من الشّوائب والعيوب ما لو لم يتجلَّ الله تعالى عليه بجبر الأخطاء والزّلل لم يُقبل.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عبّاس، كتاب: التعبير، باب: من كذب في حلمه، حديث رقم: ٧٠٤٢.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: التعبير، باب: المبشرات، حديث رقم: ٦٩٩٠.
(٣) رواه التّرمذيّ في سننه، عن أنس بن مالك، كتاب: أبواب الرؤيا، باب: ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات، حديث رقم: ٢٢٧٢، الحديث صحيح غريب.
(٤) سورة هود، الآية: ١٨. (٥) سورة البقرة، الآية: ٨٠. (٦) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٧) سورة يونس، الآية: ٢١.
(٨) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥٦٧٣.

وقد بيّن تعالى حال المؤمن الذي لا يأمن مكر الله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1] عن عائشة رضي الله عنها أنّها سألت النّبيّ ﷺ عن المعنيّ في هذه الآية، فقالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ هُوَ الّذي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ، وَهُوَ يَخافُ الله؟ قال: «لا يا بِنْتَ أَبي بَكْرٍ، يا بِنْتَ الصِّديقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذي يُصَلّي وَيَصومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يخافُ الله تعالى»[2].

وقال تعالى في حال من أمن مكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] قال الحسن البصريّ: المؤمن يعمل بالطّاعات وهو مشفقٌ وجلٌ وخائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

وقال السّبكيّ في طبقات الشّافعيّة الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنّهم مأمونو العواقب، ومع ذلك هم أشدّ خوفًا، وكذا العشرة المبشّرون بالجنّة[4].

وكذلك ممّا يحمل المؤمن على عدم الأمن من مكر الله تعالى أنّه لا يدري أغُفرت سيّئاته وقبلت حسناته أم لا؟ ثمّ بعد ذلك يترقّب بما يُختم له، فإنّما الأعمال بالخواتيم.

في الأخلاق والآداب

- من لم يتب من ذنبه ويندم عليه ثمّ يكرّره مرارًا وتكرارًا من غير ندم أو استغفار أحاطت به سيّئاته وأوردته النّار والعياذ بالله.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ" وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ- وقت طعامهم-، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»[5]، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَٔتُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[6].

- إبطال الانتفاع بالنّسب والانتساب، وتقرير أنّ سعادة الإنسان كشقائه مردّهما في السّعادة إلى الإيمان والعمل الصّالح، وفي الشّقاوة إلى الشّرك والمعاصي، قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[7]، وقال لبني هاشم: «إِنَّ آلَ أَبِي: لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ الله وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِين، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلَاهَا»[8] أي أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية:٦٠.
(٢) رواه أحمد في مسنده، عن عائشة، مسند: النساء، مسند: الصدّيقة عائشة بنت الصديق رضي اللّه عنهما، حديث رقم: ٢٥٢٦٣.
(٣) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤.
(٤) ذكره السبكيّ في طبقات الشافعيّة الكبرى، باب: ومن الفوائد والمسائل عنه، (١٣٥/٤).
(٥) رواه أحمد في مسنده، عن عبد الله بن مسعود، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٣٨١٨، الحديث حسن لغيره.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٧) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم: ٢٦٩٩.
(٨) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عمرو بن العاص، كتاب: الأدب، باب: تبل الرحم ببلالها، حديث رقم: ٥٩٩٠.

في السّيرة والشّمائل

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا فتحت خيبر[1] أُهدِيت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ» قَالُوا: أَبُونَا فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ» فَقَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرِرْتَ، فَقَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ» فَقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَنَا فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ»، قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سَمًّا؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ»، فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَذَّابًا نَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ»[2].

في السّلوك

الإشارة: ينزجر بهذه الآية صنفان: أحدهما: علماء الأحكام إذا أفتوا بغير المشهور، رغبة بما يقبضون على الفتوى من حطام الدنيا الفاني، وكذلك القضاة إذا حكموا بالهوى رغبة فيما يقبضون من الرّشاوى، أو يحصّلونه من الجاه، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

الثّاني: أهل الرّئاسة والجاه من أولاد الصّالحين وغيرهم، فإنّهم إذا رأوا أحدًا قام بولاية أو نسبة خافوا على زوال رئاستهم، فيحتالون على النّاس بالتّعويق عن الدّخول في طريقته، فيكتبون في ذلك سفسطات وترّهات، يُنفِّرون بها النّاس من اتّباع الحقّ. وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

الإشارة: اعلم أنّ كثيرًا من النّاس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويُطلقون عنان أنفسهم في المعاصي والشّهوات، ويقولون: سمعنا من سيّدي فلان يقول: مَن رآنا لا تمسّه النّار. وهذا خطأ فادح وغرور، فرسول الله ﷺ قال: «يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللهِ لَا أُمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا»[3]. وعن أبي سَلَمَةَ رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ، قَالَ: "كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»"[4]. نعم، إنّ هذه المقالة إن صدرت من وليّ متمكّن مع الله مع شرط العمل ممّن رآه بما أمر به الله مع تَرْك المحرّمات. فإنّ المأمول من فضل الله ببركة أوليائه أن يتقبّل الله منه أحسن ما عمل، ويتجاوز عن سيّئاته، فإنّ الأولياء المتمكّنين اتّخذوا عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده، وهو أنّ من تمسّك بالشّريعة وتعلّق بهم شُفّعوا فيه. والغالب على مَن صَحِبَ أولياء الله المتمكّنين الحفظ وعدم الإصرار على المعصية.

فمن كان كذلك لا تمسّه النّار.

---

(١) روي ما يخالفه في السيرة كالخصائص الكبرى للسيوطي بتحقيق التليدي والشفا للقاضي عياض والشامي، وغالب كتب السيرة من أن النبيّ ﷺ أكل منها ثم قال: "ارفعوا أيديكم...." وروي في ذلك أثر عن ابن عمر وابن صحابية أكل منها فمات، وقيل إنه ﷺ عفا عن اليهودية، وقيل: قتلها ويجب تحقيق المسألة.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: الطبّ، باب: ما يذكر في سمّ النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ٥٧٧٧.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: المناقب، باب: من انتسب إلى آبائه في الإسلام، حديث رقم: ٣٥٢٧.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي سلمة، كتاب: الصّلاة، باب: فضل السجود والحث عليه، حديث رقم: ٤٨٩.

وفي الحديث: ﴿وإذا أحبَّ اللهُ عَبْدًا لَمْ يضُرُّه ذَنْب﴾[1]، أي: يُلهم التّوبة سريعًا، كما قيل لأهل بدر: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ﴾[2].

ومَنْ استند إلى طاعة يتوسَّلُ بها ويَظنّ أنّه يتقرّب بها ينبغي أن يتباعد عن السّكون إليها، بل يقوم بها وقلبه وَجِل يسأل ربّه القبول ويشكر فضله أن وفّقه لها. ومَنْ تَحَقَّقَ بالتّوحيد علِمَ ألّا وسيلة إليه إلا به.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

﴿ ربّ أعنّي ولا تُعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسّر الهدى لي،وانصرني على من بغى عليّ،ربّ اجعلني لك شكّارًا، لك ذكارا، لك رهّابا،لك مِطواعا،لك مخبتًا، إليك أوّاهًا منيبًا. ربّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي،وثبّت حجتي، وسدّد لساني، واهد قلبي،واسلل سخيمة صدري ﴾.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن الشعبي، (٣١٨/٤).
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن علي، كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح، حديث رقم: ٤٢٧٤.